

تألهي ونسكي وتصوفي

الكاتب

العلامة محمد رشيد رضا



المنار والأزهر

كتاب يشتمل على مقدمة في ماضي الأزهر وحاضره ومستقبله
وجناية مشيخة الظواهري عليه بعد تصدير فيما يجب للازهر ورياسته

يليهما مقالات في الرد على مجلة الأزهر (نور الاسلام)
في افترائها على المنار وتأييدها البدع والخرافات
وهو القسم الاول منه

القسم الثاني منه

في خلاصة من عمل صاحب المنار لاصلاح الأزهر
تشتمل على ترجمته العلمية وتربيته الصوفية وما فيهما من الفوائد لطلاب العلم
و ٤٤ شاهدا من دعوته الاصلاحية الى عشر مقاصد اتبع الازهر أكثرها
وتأثير المنار فى العالم الاسلامى والازهر ومستقبله

علاوة الكتاب

فى العظة والعبرة بعاقبة الظواهري فى الازهر وغيره والثورة عليه

﴿ خاتمة الكتاب ﴾

أقوال أشهر مفسري القرآن في السلاطين الظالمين وأعوانهم
وما يجب على الأمة وعلمائها ، وأحاديث تؤيدها

صدرت الطبعة الأولى فى شعبان سنة ١٣٥٣ ه

مطبعة المنار بمصر

تألهي ونسكي وتصوفي

نشأت في حجر العبادة فألفها وجداني ونشطت فيها أعضائي من الصغر، فَخَفَّتْ علي في الكبير ،كنت من سن المراهقة أذهب إلى المسجد في السحر ولا أعود إلى البيت إلا بعد ارتفاع الشمس حتى كانت والدتي رحمها الله تعالى تقول: انني منذ كبر رشيد ما رأيته نائماً، فإنه ينام بعدنا، ويقوم قبلنا. وقد اتخذت لنفسي حجرة خاصة من غرفتين في أعلى مسجدنا البحريين[1] للمطالعة والعبادة وهذه الغرفة كان يخلو فيها جدنا السيد علي الكبير الذي بنى المسجد قدس الله روحه والغرفة الأخرى كانت لخادمه المسمى بالأعرج وكان أهل القرية يعتقدون أنه من الجن ويتناقلون في ذلك حكايات غريبة. وكانت هذه الغرفة ملتقى العلماء والأدباء الذين يزوروننا في القلمون يطالعون ويراجعون فيها ويتحاورون وكان شيخنا الجسر يستقرئني فيها إما بعض فصول الفتوحات المكية وإما بعض فصول كتاب الفارياق...

وكانت تلذ لي صلاة التهجد تحت الأشجار من بساتيننا الحالية، وأفكر في صدق من قال: أهل الليل في ليلهم، أنعم من أهل اللهو في لهوهم، وقول آخر: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف. نعم إن للبكاء من خشية الله وتدبر كتابه في صلاة الليل حيث يعلم المصلي أنه لا يسمع صوته أحد إلا الله لذة روحية تعلو كل لذات الضحك واللهو على اختلاف أسبابها.

وكان كبير أسرتنا الشيخ السيد أحمد أبو الكمال الذي تقدم ذكره يُدارس أولاد الأسرة القرآن في رمضان لأجل تجويده، فكنا نقرأ معه كل يوم نصف ختمة: خمسة أجزاء من بعد شروق الشمس إلى صلاة الضحى، وخمسة أجزاء بعد صلاة الضحى إلى

[1] مازالتا موجودتان (فؤاد)

الظهر، وخمسة أجزاء من بعد صلاة الظهر إلى العصر كل واحد يقرأ ثمن الجزء ويسمع الآخرون، وكان يحضر هذه المدارسة معنا عنده السيدة زلفى ابنة بنته وكانت صبية ولم يكن فينا أحد بالغاً غير ابنه السيد محمد كمال وهو خالها، وكان يقرأ في غير رمضان عشرة أجزاء كل يوم.

والسيدة زلفى هذه كانت تكتب إن شاءت وتطالع الكتب وهي أم السيد عبد الرحمن عاصم تلميذي ووكيل المنار ، وهو ابن عمي السيد محمد كامل وزوج شقيقتي ويعيشان معي. وأما عمي والده فهو على قدم عمه في الانقطاع للعبادة والنسك ويقوم بوظائف الإمامة والخطابة والتدريس في مسجدنا، وقد عُني بكتاب إحياء العلوم كما عنيت به. وكان يعاشرني ،معاشرة الصديق، ويفيدني في كثير من مسائل العربية والدين، ثم فقته في ذلك حتى كان يحضر دروسي لتواضعه وإخلاصه. أطال الله بقاءه.

وكنت أقرأ ورد السحر في غير رمضان وحدي وفي رمضان مع جماعة، وكنت إذا بلغت قوله في الجيمية:

ودموع العين تسابقني　　　　من خوفك تجري كاللجج

ولم يكن حضرني البكاء، أسكت فلا أقرأ البيت حياء من الله تعالى أن أكذب عليه.

ولما اشتغلت بالسنة وعلمت أن قراءة هذا الورد وأمثاله من البدع التي جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التي شرعها الله تعالى على ما فيه من الأمور والأقسام المنتقدة شرعاً تركت قراءته واستبدلت بها قراءة القرآن.

وكنت أواظب على قراءة دلائل الخيرات وتلقيت الإجازة بها عن الأستاذ العابد العالم الشيخ أبي المحاسن القاوقجي بسنده إلى مؤلفها، ثم تركتها بعد اشتغالي بكتب

السنة كما تركت ورد السحر، واستبدلت بها ورداً آخر في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكرة ومضاهاة للشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع.

وقد حبب إلى التصوف كتاب إحياء العلوم لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، فكنت أجاهد نفسي على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام اكتفاء بقليل من الزعتر مع الملح والسماق، وبالنوم على الأرض وغير ذلك، حتى انه لم يعد يشق علي ترك أطيب الطعام الحاضر عمداً، ولكنني حاولت أن أتعود احتمال الوسخ في البدن والثياب وهو غير مشروع فلم أستطع. وقد ذكرت هذا وذاك للأستاذ الإمام بمناسبة عرضت فقال لي وأنا كذلك، وقال مثل هذا في غيره مما اتفق وتشابه من نشأتي ونشأته.

وقد طلبت من أعبد عباد شيوخ الطريق في عصرنا الشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي أن يسلكني الطريق على أصولهم في الرياضة والخلوة والترقي في منازل المعرفة وصرحت له بأنه لا يعجبني أن أسلك طريقة الشاذلية الصورية بقراءة أورادها وحضور اجتماع أذكارها وكنت حضرت هذا عنده مراراً وحفظت حزب البر بقراءته معهم، فاعتذر وقال لي: يا بني إنني لست أهلاً لما تطلب فهذا بساط قد طوي وانقرض أهله، فرحمه الله رحمة واسعة.

ثم أخبرني صديقي الأستاذ العلامة الشيخ محمد الحسيني أنه قد ظفر بصوفي خفي من النقشبندية يرى هو أنه وصل إلى رتبة المرشد الكامل فسلكت هذه الطريقة معه، وقطعت مراتب اللطائف كلها، ورأيت في أثناء ذلك كثيراً من الأمور الروحية الخارقة للعادة كنت أتأول الكثير منها وعجزت عن تأويل بعضها إلا أنها من خصائص الروح

التي تظهرها الرياضة وكثرة الذكر والفكر، ولكن هذه الثمرات الذوقية غير الطبيعية لا تدل على أن جميع وسائلها مشروعة أو تبيح ما كان منها بدعة كما حققت ذلك بعد.

كان الورد اليومي لي في هذه الطريقة ذكر اسم الجلالة (الله) بالقلب دون اللسان خمسة آلاف مرة مع تغميض العينين وحبس النفس بقدر الطاقة، وملاحظة ربط قلبي بقلب الشيخ، وهذا النوع من الذكر غير مشروع، بل هو : مخالف لجميع ما ورد في الذكر المأثور، وهذه الرابطة محل إنكار خاص عند علماء الشرع وهي مقررة في غير هذه الطريقة وقد تكون بصفة مخلة بالعقيدة، إذا عُلَتْ عبادة شرعية، فإن مقتضى التوحيد أن يتوجه العبد في كل عبادة إلى الله وحده حنيفاً مسلماً له الدين، فالتوجه فيها إلى الشيخ قد يكون من الشرك الخفي وإن لم يقصد به عبادته وإنما يمكن تفسيرها بأنها ضرب من التربية الروحية الصناعية المجربة في إظهار ما أودعه الله في النفس من الأسرار والسنن الإلهية المخالفة للسنن المودعة في المادة، وبأن الرابطة فيها كالرابطة بين المقتدي وإمام الصلاة لا يقصد بها شيء من اشراكه في عبادة الذكر، ولا تعظيمه بنوع من تعظيم عبادة الرب، ولا تتضمن الاعتقاد بأنه قادر على شيء من النفع أو الضر، من غير طرق الأسباب المشتركة بين الخلق، وإنما هي عندهم وسيلة سببية في ربط الأرواح بعضها ببعض، من المريد إلى الشيخ فمن فوقه من شيوخ السلسلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فمن عدها عبادة شرعية فهو مبتدع بلا شك، وهذا التوجيه لها قلما يخطر ببال أحد من سالكيها.

وجملة القول أنني كنت أعتقد أن سلوك طريقة المعرفة وتهذيب النفس والوقوف على أسرارها جائز شرعاً لا حظر فيه، وأنه نافع يُرجى به من معرفة الله ما لا يوصل إليه بدونه، ولكنني لم أعتقد قط أن الشيخ الذي أرتبط به فيه قادر على شيء مما تقدم، ولم أكن أستحضره ولا أتصوره في أثناء الذكر وإنما أتصور عند البدء به أنني ربطت قلبي

بسلسلة من القلوب المخلصة الله تعالى هو طرفها الأدنى فزدت فيها حلقة جديدة، وأن هذه الرابطة لها تأثير في الإمداد الروحي كما تصل مصباحاً كهربائياً بالسلك الممتد إلى مولد التيار الشامل لمصابيح الدار كلها أو البلد كله.

ومن الغريب أن الإنسان بعد طول الإكثار من هذا الذكر يصير يسمع) للقلب صوتاً، وأغرب منه أن يسمع غيره صوت قلبه أخبرتني والدتي تغمدها الله ووالدي برحمته ورضوانه أنها وضعت أذنها مرة على صدر عمها السيد الشريف الصالح عبد الرزاق حبلص فسمعت منه ترداد اسم الجلالة الله الله الله. وقد أدركت أنا عمها هذا وأنا صغير ولم أكن أعلم من أمر هذه الطريقة شيئاً. وقد لقنني الأستاذ بعد الانتقال من اللطائف كلها أو عند لطيفة السر الذكر بكلمة التوحيد باللسان. (نسيت الآن).

هذا ما أقول في الورد الشخصي والرابطة وللطريقة النقشبندية ورد آخر مشترك يسمى الختم، وهو عبارة عن اجتماع من كان حاضراً من أبناء الطريقة على ذكر وقراءة القرآن والتوجه إلى استحضار بعض أرواح سلسلة الطريقة مع تغميض لبعض سور العينين، واستحضار الروح لا يتضمن شيئاً من عبادتها بدعاء ولا تعظيم تعبدي، والاستمداد الروحي ليس عبادة بالفعل ولا بالقصد إلا أن يكون من جاهل بالشرع، شيخه أجهل منه وأضل سبيلا، وإنما هو من قبيل ما يحكى عن الإفرنج من ذلك، وقد سبقهم إليه الصوفية، وسأذكر بعض ما حققته فيه. ولكنه لا يخلو من مثار فتن دينية، وخوف اختلال في القوى العقلية بما يعرض للجاد المجد فيه من العوارض غير الطبيعية، ولذلك اتفق الصوفية العارفون على أنه لا يجوز سلوك طريقة الرياضة عندهم إلا بإرشاد شيخ عارف:

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفادا

ما يعرض نسالك الطريق من الأمور المروحية الغربية

أول ما عرض لنا من ذلك أن كانت تتمثل لنا ونحن في الختم مغمضي الأعين صورة من يذكر الشيخ اسمه من رجال السلسلة لعقد الرابطة به وأعلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفوقه النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كان هذا بعد تكرار، وكنت أعتقد أنه خيال يثيره التخيل، ويدعي الشيخ أن الروح نفسها تحضر الختم وتتجلى للمستعد، وكل شيوخ الطريق يدعون هذا ويزعمون أن روح النبي صلى الله عليه وسلم تحضر مجالسهم، فمنهم الكاذبون الدجالون، ومنهم المتخيلون الممثلون، وقد أطلت في تحقيق هذه المسألة في بحثي الفياض في الكرامات الذي كتبته في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) الذي ألفته وأنا تلميذ ثم عدت إليه في المجلد الثاني من المنار ثم في المجلد السادس منه، ثم ألممت به في مجلدات أخرى.

ثم عرض لي ولغيري في أثناء استحضار هذه الأرواح بالتخيل أن نميز بينها باختلاف صورها ونشم للروح رائحة عطرية مُنْعِشَة لا نظير لها فيما نعرف من الأعطار. فكنت في أول العهد بها أظن أن الشيخ يحفظ في جيبه قارورة أو حقاً فيه هذا النوع من العطر فيفتحها في أثناء الختم ولا يراه منا أحد، وهذا من خواطر السوء في الشيخ لا تبيحه آداب الطريقة، بل هو من عوائق السلوك، ولكن الرائحة لم تكن تستمر، ثم صارت تعرض لي في أثناء وردي الخاص فأظن أنها ذكرى في النفس، تعدى أثرها إلى الأنف بالوهم، وبعد التكرار اعتقدت أن ما يقوله كبار الصوفية من أن للأرواح الشريفة الزكية العالية رائحة طيبة ذكية صحيح، وأن تجلي الأرواح صحيح في الجملة.

ومما كنت قرأته في الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين بن عربي (وهو من أكابر الصوفية الروحانيين على ما عرض له من الاختلال في معلوماته الدينية والكشفية) أن

الشيخ عبد القادر الجيلي[1] كان يعرف مقامات الرجال العارفين بالشم، وأنه شم محمد بن قائد فقال له: لا أعرفك، وكان ابن قائد يرى لنفسه مقاماً عالياً فعرف من إنكار عبد القادر له ،قصوره فَعَكَ همته حتى صار من الأفراد.

ويذكر في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي[2] الصوفي الفقيه المشهور أنه لما جاء طرابلس ترجل قبل أن يبلغ مقبرتها في المكان المعروف بباب الرمل فترجل من معه وسألوه عن السبب فقال: إننا قربنا من مكان فيه بعض قبور الروحانيين.

ومما أخبرني به صديقي الأستاذ المصدوق الشيخ محمد كامل الرافعي أن والده الشيخ عبد الغني كان يشم لبدنه ولثيابه رائحة مسكية في أثناء خلوته وانقطاعه فيها لذكر الله تعالى. ومما يتناقله أهل القلمون أنه لما نبش قبر السيد أحمد أخي جد والدي الذي تقدم ذكره وأن مصطفى آغا بربر تزوج ابنته كانت رائحة ترابه ذكية كالمسك حتى ان بعض الناس أخذوا منها في جيوبهم ما يحفظونه في بيوتهم.

وأخبار الشيخ علي العمري الطرابلسي المعاصر لنا في الرائحة كثيرة، ووقائعه فيها مشهورة في طرابلس والآستانة ومصر وكانوا يسمونه شيخ المسك، إذ كان ينفخ على الشيء كمنقوع الشاي والقهوة وعلب التبغ فتصير رائحتها مِسْكيَّة.

وقد أخبرني المشير العثماني أحمد مختار باشا الغازي عنه ببعض ما وقع له في أثناء زيارته لمصر وإقامته في قصر القبة ضيفاً عند الخديو محمد توفيق باشا الذي استحضره

[1] الشيخ عبد القادر الجيلي – الجيلاني – الكيلاني: ولد ٤٧٠هـ – ١٠٧٧م، وتوفي ٥٦١ هـ – ١١٦٥م. (فؤاد)

[2] الشيخ عبد الغني النابلسي: ولد ١٠٥٠هـ – ١٦٤٠م، وتوفي ١١٤٣هـ – ١٧٣٠م. له كتابان: تعطير الأنام في تعبير المنام، والحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز. (فؤاد)

مـن طـرابلس لأجـل استشـفاء بنـت لـه مريضـة برقيتـه وبركتـه بعـد أن عجـز عـن مـداواتها الأطباء فشفيت. والمسألة مشهورة في طرابلس الشام وعند الخواص في مصر.

قـال لي مختـار باشـا ان الشـيخ العمـري كـان يـزورني بعـد العصـر في كـل يـوم فيشـرب الشـاي معـي ثم نخـرج إلى التنـزه في الجزيـرة ونعـود عنـد الغـروب فيـذهب هـو إلى قصـر القبـة وأجيء أنا إلى قصر الإسماعيلية هنا (حيث حدثني).

قـال فكـان إذا أحضـر الشـاي يـنفخ علـى الإبريـق والفنـاجين فنجـد للشـاي رائحـة المسـك. فقـال لي شـوقي باشـا هـو زوج بنـت الغـازي ووالـد وزيـر الجمهوريـة التركيـة المفـوض بمصـر اليـوم) في احـدى الليـالي ان المسـك طيـب شـرقي أو عـربي معـروف ويمكـن للشـيخ أن يـرش شـيئاً مـن مسـحوقه في الشـاي بخفـة لا نشـعر بها فـإذا كـان هـذا التعريـف (للتطييـب) للشـاي أمـراً روحانيـاً أي يحـدث بالتوجـه الروحـي المعـروف عنـد الصـوفية فلمـاذا لا يطيبـه لنـا بعطر كذا الإفرنجي (وذكر لي الباشا اسم عطر إفرنجي لم أحفظه).

قـال فلمـا كـان اليـوم التـالي وجـاءنا الشـيخ علـي العمـري وأحضـر الشـاي نفـخ عليـه أو فيه فإذا رائحته هي رائحة الطيب الذي ذكره شوقي باشا ليلاً ولم يكن معنا أحد.

أقـول وقـد كنـت بعـد ذلـك أشـم أحيـاناً هـذه الرائحـة في الـدار وغيرهـا ثم تـذهب مـن نفسـها بسرعة وقـد يكـون بعـد السـؤال مـني لمـن في الـدار هـل تشـمون رائحـة طيـب؟ فيقـال: لا. وقـد عـرض لي في رمضـان شـيء مـن هـذا القبيـل لا أذكـره وكـان قبـل سـلوك الطريـق ولكن كنت ربما أقرأ في النهار منه ختمة كاملة في حقل لنا.